حوليات آداب عين شمس المجلد ٤٩ (عدد يناير – مارس ٢٠٢١)
http://www.aafu.journals.ekb.eg
(دورية علمية محكمة)
جامعة عين شمس
كلية الآداب

مقاربات في الصراع الانساني بين ملحمة جلجامش والشعر الأندلسي " دراسة نقدية فنية"

ليلى مناتي محمود*

*قسم وحدة سلامة اللغة العربية- كلية اللغات - جامعة بغداد - العراق
laylamnite@colang.uobaghdad.edu.iq

المستخلص

يهدف هذا البحث الى تحديد مقتربات فنية توثق صلة الشعر الأندلسي بملحمة وادي الرافدين، وتأثره بكثير من موضوعاتها، ولاسيما صورة الصراع الإنساني، إذ وجد الباحث كثيراً من الصلات بين الأدبين، وقد دلل عليها في أماكنها، فأتجه إلى دراسة ملحمة جلجامش بنصوصها الشعرية التي كتبت باللغة السومرية والاكادية "البابلية والاشورية" (ينظر: طه باقر، ١٩٨٠،ص٩-١٠)، على الواح من طين بالخط المسماري، مع نصوص شعرية لشعراء أندلسيين، وقد وجدت مقاربات منهجية رائعة ترتقي بالبحث الى مستوى العثور على جوانب مهمة، ارتبطت ارتباطا عميقاً بنفسية، شاعر الملحمة وشعراء الأندلس، وانفعالاتهم الذاتية والأطر الاخلاقية التي حصنوا بها انفسهم من دون المساس بشخصيتهم الفاعلة التي تجلت بوضوح في شعرهم، واستطاعت البوح بما يجول في داخلهم، وقدمت لنا كل ما نريد معرفته والاطلاع عليه، وكشفت عن طبيعة عقلية هؤلاء الشعراء، وما وصل إليه تفكيرهم من وعي وثقافة اصيلة بلورتها الاحداث بشكل ينسجم مع اهدافهم. كما وقف البحث عند طبيعة الصراع الانساني بأشكاله المختلفة، سواء أكان صراع (خارجي)، وهذا الصراع ينشأ مع الآخرين والمجتمع وقيمه، أم صراع (داخلي)، ويكون مع النفس وهواجسها ونوازعها، وحاولت في بحثي الوقوف عند النصوص الشعرية لهؤلاء الشعراء، لأنها تشكل الوسيلة الرئيسية المناسبة في الوصول الى تجليات هذا الصراع بمفهومه الشامل، كاختلاف الرأي، او وجهات النظر، او الحُكم على شيء ما؛ لأن النص خلاصة تجربة الشاعر، ووثيقة مهمة لوقائع حياته وما رافقها من احداث وتفصيلات،تكشف كثيراً من ملامح ذلك العصر الذي عاش فيه.

© جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لحولية كلية الآداب - جامعة عين شمس ٢٠٢١.

المقدمة

تُعد ملحمة جلجامش أنموذجاً فريداً ومتكاملاً لأدب العراق القديم، التي وصلت إلينا في نسختين ترقى الاولى الى العصر البابلي القديم (٢٠٠٠ – ١٥٩٥ ق.م)، وترجع الثانية الى الحقبة الاشورية، إذ ربما بتدوينها وترجمتها من اللغة السومرية الى الاكادية الملك الاشوري باني بال (٦٦٨ – ٦٢٧ ق.م). (ينظر :د. سامي سعيد الاحمد،١٩٩٠م،ص[٥٨]). وتكشف تلك الملحمة عن كثير من خصائص ذلك الادب، إلى جانب كونها قد حصلت على شعبية كبيرة، والملحمة بعد ذلك قد أثرت تأثيراً كبيراً في آداب بلدان العالم القديم، ولاسيما الشرق القديم منه، إذ تأثرت بها ملاحم اليونان والرومان والتوراة (المصدر نفسه)، فضلاً عن قصص وملاحم كثيرة قد أُلفت ونسجت على منوالها، غير أنها كانت بأسماء ابطال أخر تعكس اماكن ومسميات تلك الشعوب، ولكنها في مجملها كما يرى أحد الباحثين كانت تتخذ من حدث الطوفان اساساً في بناء احداثها وموضوعاتها، مما دفع الباحث إلى افتراض أن الطوفان حدثاً كونياً، او أن الامر ليس سوى صدى لملحمة جلجامش. (د.سامي سعيد الاحمد،١٩٩٠م، ص[٨٤-٨٥-٨٦]).

ومنذ أن تم إبداع ملحمة جلجامش ونضجها، قبل منتصف الالف الثالث قبل الميلاد (طه باقر، ١٩٨٠، ص[١٢-١٣]) وحتى يومنا هذا تتجلى ابعادها في ظواهر تأريخيه وثقافية مختلفة توحي للشعراء بإعادة صياغة مداليها وفق اشكال جديدة متلازمة، فهي تحرض على الخلق المستمر.

لابد أن تمثل بذاتها عالماً ينطوي على قوة ديناميكية ذي ميزة أزلية تخترق حدود الزمان والمكان، فقد حافظت هذه الملحمة، على هالة اسطورية،حافلة بذلك النوع من الاستكشاف العاطفي لمعاني الحياة الدائمة، نتيجة تناولها وطرحها للهموم والافكار التي تورق الانسان. فهي عمل فني يتجاوز الزمان والمكان، يقرأها البشر من شتى الثقافات، وكأنها كُتبت خاتمة الامس، تمشي مع بطلها في تجواله كأنه كلٌ منا، نستطيع النفاذ من خلالها الى داخل قلوب سكان العراق القديم ونفوسهم، ومعرفة كثيراً من المظاهر العقلية والروحية لهم.(صموئيل نوح كريمر، ص[٢٢٦])

إن الشاعر في تلك الملحمة كان ينظر الى الأشياء في عصره نظرة خيالية او اسطورية، معبراً فيها عن فهمه وآرائه في الكون والحياة، فهو لا يختلف كثيراً عن شعراء العصور اللاحقة، إذ كانت موضوعاته تأخذ طريقها لديه بما يوازي اسلوب تداعي المعاني والافكار في الشعر، فضلاً عن كونها تعكس الحياة الروحية والفكرية لحضارة العراق القديمة، ولولاها لبقيت هذه الحضارة مجهولة. (المصدر نفسه) .

سنتناول في بحثنا هذا صورة الصراع التي استعملها مؤلفو تلك النصوص الشعرية سواء في ملحمة أم نصوص الشعر الأندلسي، وتحديد مقتربات فنية توثق الانصهار الحضاري لأنسان بلاد الرافدين مع الشاعر الأندلسي، فتبادل الإنسان مع الآخرين الخبرات وما يتصل بها من عادات أخرى، يجسد التواصل المترابط بين الملحمة والشعر الأندلسي، من خلال تحليل بعض النصوص الشعرية من منظور نقدي فني.

١. الصراع ضد الاخطار والتهديدات الخارجية والداخلية للمدن

كان هناك صراع بين دويلات المدن السومرية، خلال عصر الاسرات الاولى، فالملك " أجا" حاكم مدينة " كيش " المجاورة، يطلب من اوروك الاستسلام له، او تحمل نتائج الحرب المدمرة، رغم ان جلجامش كان مصمماً على القتال وعدم الاستسلام، إلا أنه جرياً على التقاليد الديمقراطية السائدة في سومر حينذاك، يدعو مجلس الشيوخ الى الانعقاد ويطلب مشورتهم، ولكن مشورتهم جاءت مخيبة له، إذ فضلوا الرضوخ لأجا على قتاله،

وهنا يتحول الى مجلس الشباب، ويتحدث إليهم عن تحصين المدينة وضرورة الصمود، فيجد لديهم حماساً يعادل حماسه، يعلنون امامه بصوت واحد .(فراس السواح،١٩٨٧، ص[٣١-٣٢]).

لا تستلم الى كيش، ولنقهرها بالسلاح
ومعبد إيانا هبة من السماء
أسوارها السامقة تلمس اطراف الغمام
أنت الذي رعاها، أيها الملك، أيها البطل
ايها الغازي، أنت فكيف تخشى قدم أجا
إن جيشه لقليل وصفوفه مترنحة
رجاله لا يقوون على رفع أبصارهم الينا

إن شاعر الملحمة هنا يحاول رسم صورة الفارس المثالي الذي لا يحجم عن القتال،ويركب صعاب الامور وأقواها، فهو يتحدث عن قدسية البطولة في شخص جلجامش، كما أن تجربة الحرب المؤلمة التي سيخوضها جلجامش وقومه، قد عززت في نفسه القدرة على المواجهة وابراز الروح القتالية التي يتمتع بها مجلس الشباب، فكانت هذه الوقفة الجماعية التي هزمت جيوش " أجا " وخذلتهم تمثل ترسيخاً فكرياً للقيم الاصيلة التي يعتز بها السومريين، فكان التغني بهذه الامجاد البطولية وما احتوته من مواقف ايجابية كفيل بأن تثير في جلجامش نشوة الظفر والانتصار، فيلتفت الى صديقه انكيدو، ليقول له:(المصدر نفسه)

الآن دع عدة السلاح تخلي مكانها لمعمعات القتال
ولتأخذ عدة الحرب مكانها الى وسطك ثانية

ومن هنا فان نقطة الانطلاق الاولى التي تفرض نفسها هي ان الديمقراطية بدأت في بلاد سومر- هذا يثبت أن تاريخنا الديمقراطي مشرف- ومن خلال العلاقات الحضارية والثقافية المزدوجة، بين السومريين والأندلسيين، فأن الشعر الأندلسي هو رؤية كونية لا تنصهر في تصوّر نهائي لحالة معينة، بل نموذج للتعبير عن حالة العصر عبر ربط الحاضر القومي بالماضي البعيد، لأنها كما نعتقد موصولة بإرث أزلي، يعكس في جانب منه الفعل الديمقراطي-حرية الرأي- الذي يحمي الامة من كافة الاخطار والتهديدات والمشكلات الداخلية والخارجية، ولا نستبعد ان تكون هذه الوقفة الجماعية هي العلامة ذاتها التي ألمح فيها ابن فركون الى الديمقراطية، حينما استولى " الإفنت". (ينظر: تاريخ اسبانيا المسلحة في عصر بني نصر، ص[١٢٧])، على بعض الحصون كحصن الصخرة في ناحية رندة، لما بويع يوسف الثالث، كان أول ما باشره هو أمر الهدنة، ولكنها كانت هدنة على دخن؛ لآن المسلمين انتهزوا فرصة سانحة، فزحفوا على حصن الصخرة واستباحوا وقضوا على حاميته. (المصدر نفسه).

وفي مثل ذلك يقول : (محمد بن شريفة، ١٩٨٧، ص[٦١])

قد فَتَّ في عضد " الإفنت" وحزبه — فتنٌ تثلُّ عروشهُ وتصوّحُ
لا تخشى عزمتُه ولا زُعماؤهُ — فالرأيُ فيهم هادِرٌ لا يُلقحُ
فالسّابقاتُ لقد أقرّ عيونها — مَرمىً إلى الفتح المبين ومطمحُ
والسّابحاتُ ومن بها لك أجرُها — ممُهلٌ إثناءها ومسبح

لقد تجلت قدرة ابن فركون على معالجة الحدث في أرضية مشتركة، تستلهم الواقع وتستجلي الاحداث، التي يحاول الحديث عنها في تشكيله الشعري، فيتحدث عن المعركة

التي خاضها الملك يوسف الثالث لمواجهة | فرناندو" ملك الروم وجنوده، وكانت هذه الوقفة الجماعية التي هزمت جيوش فرناندو وخذلتهم والتصدي لهذه الهجمة القاسية يمثل ترسيخا فكرياً للقيم الأصيلة، والروح البطولية التي يتمتع بها " مجلس الشورى". (محمد بن شريفة، ١٩٨٧، ص[١٥٠]).

وفي قصيدة له أخرى، هنأ فيها النصر الذي حققه الامير معز الدولة، صوّر فيها لقاءه بالإسبان، والبلاء الحسن الذي ابلاه، حتى تحقق له النصر عليهم، إذ يقول:(محمد بن شريفة، ١٩٨٧، ص[١٩٧])

لمَّا التقى الجمعان في أِرض العدا ورمَيتَ جَمعَهمُ بَبأس مُعجلِ

ومن هذا المنطلق ارتقى وعي الشاعر وادراكه بالنظر الى جهاد الجماعة على أنه الأساس الأول القادر على التصدي لهجمات الإسبان ومنعها ورفع الحيف والظلم عن الأندلسيين. وبهذا استطاع الشاعر أن يهيئ كل مستلزمات الاداء الفني في التعبير عن منطلقاته الفكرية وآرائه التي تعزز وحدة الجماعة وقدرتها على منع الظلم وسفك الدماء.

٢. الصراع مع القوة التي تمثل الشر

إن الحياة لا تستقيم الا بالصراع، وأن جوهرها وقانونها الخالد هو السيف الصارم، وهنا يبدو الصراع بين الإنسان والقوة التي تمنعه من استثمار الطبيعة والتمكن منها، وهو حارس غابة الارز "خمبابا"، إذ نقرأ قول جلجامش لانكيدو: (طه باقر، ١٩٨٠،ص[٥٢-٥٣])

يسكن في الغابة خمبابا الرهيب فلنقتله كلانا
ونزيل الشر من الارض
وسأصدر يا صديقي اوامري إلى صانعي السلاح
صبوا سيوفاً كبيرة نصل كل منها وزنتان وقبضاتها تزن نصف وزنة
وسيوفا أغمادها من ذهب يزن الواحد منها نصف وزنة

وبين إقدام وتردد، وشجاعة وخوف، ويقين وشك، وصل البطلان الى الغابة وتجاوزا بوابتها المسحورة، ليتصادما مع حارسها " خمبابا " ونشبت بين الطرفين، معركة سرعان ما أنتهت بانهزام " خمبابا " بعد أن أتحد كل من " انكيدو " و "جلجامش "، فانتصر البطلان ليقوما بقطع رأسه قربانا للإله " شمس ".

يبدو للوهلة الأولى أن تجربة النص وهمية، او غير واقعية، كونها تتناول موضوعاً خيالياً، غير أن الثابت، أن صور النص قد أدت وظائفها بعدة طرق، حتى كأنها توحي او تعني اشياء تبدو أكثر من مجرد معان دلت عليها، لعل في مقدمتها، ابراز صورة الفارس المثالي الذي لا يحجم عن القتال ويركب صعاب الامور وأقواها.

نعتقد أن تجلي الروح البطولية لجلجامش في المقطع السابق قريب الشبه من يوسف الثالث، عندما حاول إبراز الروح البطولية التي يتمتع بها، فيعلن في إباء وشموخ من خلال ابياته الآتية، إذ يقول: (عبدالله كنون، ١٩٦٥، ص[٥])

وإنّ "إفنت " الرّوم ينقادُ خاضعًا كمّا انقادَ من بَعدِ الإباءِ جَموحُ
سَيرضَى بحكم السيفِ منه مسنّتوفٌ ويَسمحُ بالمالِ العريضِ شحيحُ
وذلك سَهلٌ في مشيئةِ قادرٍ نبيلُ مَرامًّا مُرتجَّى ويُتيحُ
أمّا نحنُ- واللهُ العَليمُ بقَصدِنا نَهَّجرُ في نَصر الهَّدى ونُريحُ
بأفئدة لا يستقرُّ قرارهُا وهل بمُثارِ النقع تَهدَ أريحُ
يُصرّحُ مَلكُ الرّوم جَهدٌ بصُلحهِ وبُرهانُ مقصودي لدَيه صَريحُ
وهل لي إلى غيَرش الحروب تطلّعٌ وهل لي إلى غَيرِ الجهادِ طُموحُ

٣. الصراع مع فكرة الموت

الصراع الازلي مع فكرة الموت والفناء المقدرين على البشر، وبين ارادة الانسان المغلوبة المقهورة في محاولتها التشبث بالوجود والبقاء، فقيمة الخوف من الموت واضحة، وهي قيمة موجودة في كل عصر، وهذه النظرة مشوبة بالخوف، إذ يقول جلجامش مخاطباً صديقه انكيدو:

(طه باقر، ١٩٨٠،ص[٧٣])

فأي نوم هذا الذي غلبك وتمكن منك؟
لقد طواك ظلام الليل فلا تسمعني
ظل مطبق العينين ولم يفتحهما
فجس قلبه ولكنه لم ينبض

فالموت تلك القوة التدميرية للبشر، يبعث الرعب والخوف في قلب كل انسان، والغيب الذي يراه جلجامش هنا يحمل بين اثنائه الرهبة من حتمية القدر المسلط بكل جبروته وعنفوانه على الجميع،

الذي صاد حمار الوحش في البراري والنمر في البادية
والذي تغلب على جميع الصعاب
وارتقى الجبال ومسك ثور السماء وقتله
صديقي وخلي الذي احببته حباً جماً والذي صاحبني في كل الصعاب
لقد افزعني الموت حتى همت على وجهي في القفار والبراري

فجلجامش يصحو على تلك الحقيقة التي أطاحت بلهوة وعبثه، فيعمد الى التغلب على هذه الفاجعة بالنزوع الى ذكر مناقب، ومأثر انكيدو، إذ يقول: (طه باقر، ١٩٨٠، ص[٨٧])

قد أدرك مصير البشر صاحبي وأخي الأصغر انكيدو
الذي صاد حمار الوحش في البراري والنمر في البادية
والذي تغلب على جميع الصعاب
وارتقى الجبال ومسك ثور السماء وقتله

لم يكن الشاعر الاندلسي بعيداً عن ذلك، إذ ينطلق ابن عسكر الغساني المالقي (٦٣٦هـ) من واقع مؤلم يدرك فيه أنه فقد صديقه الذي يلتجئ اليه في ازماته ومشاكله التي كانت تعترضه من حين لآخر، فتعود ذاته الى الانكماش، إذ يجد نفسه في عمق المواجهة مع الموت، فما عليه الا التصدي له بالإيمان المطلق بحتمية وقوعه، إذ يقول: (د. محمد عويد الساير، ٢٠١٣، ص[٨٧])

يبكيك كلُّ طريدِ الدارِ مُنتزح ... عن الاقارب أعتبه المعاذيرُ
قد كان منك الى ظلٍّ ومُستندٍ ... يأوي، ويعقبُه، المعسورُ، ميسورُ
فالآن يُرجعُ لا ما رام أدركهُ ... منها مخبلُ رجاءِ الحاج مبتورُ
إني لأبكيكَ عن خبرُ ومعرفةٍ ... فأنت عندي معلومُ ومخبورُ

٤. الصراع من اجل الحصول على الخلود

لعل ما رصدناه في ملحمة جلجامش التعبير عن هاجس الخلود ومحاولة تحقيقه للذات في اطار معنوي، بعد أن ايقن جلجامش باستحالة الخلود المادي . (د. محمود عبدالله الجادر، ١٩٩٠، ص٢٣٩) .

فقد بلورت الملحمة عن مواقف عديدة، عبر فيها جلجامش عن مواجهة ايجابية أدرك من خلالها أهمية الخلود المعنوي كقوة فاعلة أزاء حتمية الموت- حتى لايلاقي مصير صاحبه باتخاذ السلوك المعنوي للتخفيف من وطأة الموت والمصير المحتوم في محاولة استرضاء ذاته والتخفيف عّما يثقلها من هموم وأحزان، إذ يقول : (طه باقر، ١٩٨٠، ص٨٦)

جئت لأسأل عن (لغز) الحياة والموت
ففتح الرجل العقرب فاه وقال مخاطباً جلجامش
لم يستطع أحد من قبل ان يفعل ذلك يا جلجامش
لم يعبر أحد من البشر مسالك الجبال
حيث يعمم الظلام الحالك في داخلها مسافة اثنتي عشر ساعة مضاعفة ولا يوجد نور
وبعد أن قطع اثنتي عشرة ساعة مضاعفة عمّ النور
فوجد الأشجار التي اثمارها العقيق
وتتدلى الاعناب منها ومشهدها يسر الناظر
ووجد الأشجار التي تحمل اللازورد فما احلى مرآها
رأى الشوك والعوسج الذي يحمل الاحجار الكريمة واللؤلؤ البحري

إن خوف جلجامش من سطوة الموت يشير في نفسه النزوع نحو البحث عن سر الخلود، حتى لا يلاقي مصير صاحبه، لان جلجامش معني بالحياة، وهذه العناية بالحياة، تعني تجريد الموت من هيمنته المطلقة، فيتحمل الصعاب للحصول على سر الخلود، الذي يكمن في نبات ينبت في المياه مثل الشوك، إذ يقول اتونبشتم: (طه باقر، ١٩٨٠، ص١٠٢-١٠٣)

يوجد نبات مثل الشوك ينبت في المياه
انه كالورد شوكة يخز يديك كما يفعل الورد
فاذا ما حصلت يداك على هذا النبات وجدت الحياة الجديدة
فقال جلجامش : (طه باقر، ص١٠٣)
لأخذه معي الى اوروك، الحمى والسور
واشرك معي (الناس) ليقطعوه ويأكلوه
وسيكون اسمه " يعود الشيخ الى صباه كالشباب "

وبعد أن تقوم الافعى بأكل النبتة، يدرك أن الموت لا يمكن تفاديه والفرار منه، ومن هذا المنطلق يدرك حقيقة الموت واستحالة الخلود المادي ؛ ليقرر منطلقاته في البحث عن الخلود المعنوي من خلال بذل النفس في مواجهة التحديات (د. عبدالرزاق خليفة محمود، ٢٠٠١، ص١٩٢). فإن الترس والمدية والبلطة والقوس هي فرحته في مواجهة الموت، إذ يقول: (فراس السواح، ١٩٨٧، ص٣٥)

سأدخل أرض الاحياء وأخلد لنفسي هناك اسماً
ثم يمضي الحدادين ليصنعوا له ولمرافقيه أجود انواع الاسلحة

أما يوسف الثالث فأن هاجس الخلود عنده في ذكر شجاعته، فهي مبعث خلوده، في هذه الدنيا، حينما " تنزل بساحة المرء مصائب او محن هائلة لا يملك حيالها شيئاً، ولا

تقوى ارادته على صدّها، فهناك قد تنطلق من عقالها بعض القوى الدفينة في اعماق طبيعتها الخلقية، لكي تقوم بدور المقاومة الفعّالة بدلاً منه النشاط العادي الموجود لديه" . (د. زكريا ابراهيم، ١٩٧١، ص[٢٤٩])، فتستيقظ نخوة الملك في الشاعر وتترك " أناه قوية" مدوية إذ يقول : (عبدالله كنون، ١٩٦٥، ص[٢١-٢٢])

خليلي لم يخش الردى حد مرهفي فياعجباً والموت في صفحاته
وكيف يقيل الدهر للموت عثرة ونحن نقيل الدهر من عثراته
وإني ومن يردى الكماة ثباته وقد هد ركن الصبر في وثباته
وإني من يخش الملوك نزاله ولم يخش صرف الدهر من عزماته

وإني من ترجو العفاة نواله وتخشى أسود الحرب حد ثباته
ومن ترهب الابطال سطوة بأسه ويرتاح منه الليث في أجماته
ولكنني لم ألق للموت مدافعاً يرد الذي قد خيف من سطواته

يستعرض الملك في هذه الأبيات قوته وبأسه وشجاعته، مظهراً استعلاءه على جميع ملوك الأرض، وأكثر من ذلك هو الذي يقيل الدهر من عثراته، فحين أحتج يوسف الثالث على الموت الذي اختطف صغيره المفطوم من مهده، إنما كان يحاول الاحتجاج على قوة فوق قوته، ويصارع امراً كان مفعولاً.

٥. صراع الرجل مع المرأة :

إن الإنسان الرافديني عرف المرأة على نفس الصورة التي عرفها الشاعر الأندلسي في أدبه، بل أن الشاعر الأندلسي ورث رأيه في المرأة وشعوره تجاهها عن أدب العراق القديم، فقد كان أدب فيه كل سمات أعمال البصيرة النافذة، لأنه استطاع أن يثب فوق الاسوار العالية كاشفاً، عن لقاءات ودية مع اشياء الكون وموجوداته، وكان ذلك اللقاء حميمياً حاد الرؤيا في علاقته اتجاه المرأة من امومته، حنان، خصب، رقة، شهوة، نزوة، غدر، فقد كانت حافزاً مهماً تستثار من خلاله عواطفه وإهاجة مشاعره واحاسيسه. فالمرأة شعلة توقد حماسته،وهي قادرة على الخلق وتحفيز الطاقات الابداعية عنده، وبذلك تقدم المرأة الى جانب حسنها على أنها مثال لما يتمناه الرجل ويرغب فيه، وليس كما كونتها الطبيعة او كأن هذه الطبيعة، إذ ابدعتها لا تقوم الا بتقليد الإبداع الإنساني نفسه، في هذا التقديم نقل الحُسن من مداه الطبيعي الى مداه الحضاري مع ما يتضمنه هذا النقل من ايحاء يخرج به عن المألوف والنسبي الى الاستثنائي المطلق . (د. سامي سويدان، ١٩٩٩، ص[٣٠٤]). ففيها يجد الشعراء واحتهم الشعرية الوارفة الظلال، ينهلون منها ما شاء لهم أن ينهلوا، فهي الحافز المؤثر الذي يستجلي رقة مشاعرهم بصدق وموضوعية.

الصراع الاول : جلجامش وعشتار

احتلت المرأة - انموذجاً رمزياً- بوصفها عنصراً فاعلاً، لتشكل بؤرة الصراع النفسي في حياة الإنسان الرافديني، ذلك الصراع المتمثل بين جلجامش وعشتار، بنت كبير الآلهة السومرية "آنو"،ففي سياق الملحمة يظهر عدم التزامها بالقيم، تسير وفق اهواءها، إذ تقول لجلجامش: (طه باقر، ١٩٨٠، ص[٦٠])

تعال يا جلجامش وكن عريسي
وهبني ثمرتك اتمتع بها
كن زوجي واكون زوجك
سأعّد لك مركبة من حجر اللازورد والذهب

عجلاتها من الذهب وقرونها من البرونز
وعندما تدخل بيتنا ستجد شذى الارز يعبق فيه
اذا دخلت بيتنا فستقبل قدميك العتبة والدكة
سينحني لك الملوك والحكام والامراء

إن شاعر الملحمة قدم لنا فناً رائعاً بأسلوب قصصي كان الحوار أحد سماته، لكنه في الوقت ذاته يخلو من الجانب الاخلاقي، فلذة عشتار اللازمنية قد طغت على النص، فمثلت رمزاً للفساد الخلقي، باقتناصها اللذات الحاضرة والاستمتاع بها، وإذا اعددنا هذا الجزء سنستشف بأن قيم عدم الوفاء والاستهتار والغدر قيم غير مرغوب بها، وأن الاغراء بالأشياء المادية والجاه للوصول الى الاهداف، لا يمكن أن ينتصر على القيم الايجابية في المجتمع العراقي القديم، الذي يحمل قيم الرفض للظلم، وهنا تتجلى مقدرة جلجامش في مواجهة الفساد والتصدي له، حينما يخاطب عشتار رافضاً طلبها، إذ يقول : (طه باقر، ص٦١)

أيَّ خير سأناله لو تزوجتك
أنت ! ما أنت الا الموقد الذي تخمد ناره في البرد
أنت قصر يتحطم داخله الابطال
أي من عشاقك من بقيت على حبه ابدا؟
وأي من رعاتك من رضيت عنه دائماً؟
لقد احببت (طير) الشقراق المرقش
ولكنك ضربته بعصاك وكسرت جناحيه

يبدو أن قيم عدم الوفاء والاستهتار بالحب والغدر بالحبيب موصول بأفعال ولادة بنت المستكفي(فوزية عبدالله، ٢٠٠٠، ص٥٨)، سليلة البيت الملكي العريق، قد سِيطت في عروقها ونياطها دماء العظماء، وجينات الكبراء، فتقلب حينها ظهر المجن، وتظهر عندئذ نعرة الملوك، إذ تقول: (محمد حسن قجة، ١٩٨٥، ص١١٣)

أنا والله أصلح للمعالي وأمشي مشيتي وأتيه تيهاً
أمكن عاشقي من صحن خدي وأعطي قبلتي من يشتهيها

بهذين البيتين الجريئين زيّنت ولادة بنت المستكفي ثوبها، عندما حاولت إضرام نار الغيرة في قلب ابن زيدون، وبذلك اشعلت حرباً بين الوزيرين ابن زيدون وابن عبدوس (خميسي بو لعراس، ٢٠٠٧، ص٥٠).

فقرر ابن زيدون أن يردها إليها، فتعمد أن يبالغ في إحدى الليالي بالتعبير عن إعجابه بصوت جارية ولادة وهي تغني، مما أشعل الغيرة في صدر ولادة التي قالت: (محمد حسن قجة، ١٩٨٥، ص١١٣)

لو كنت تنصف في الهوى ما بيننا لم تهو جاريتي ولم تتخيرّ
وتركت غصنا مثمراً بجماله وضجت للغصن الذي لم يثمرِ

الصراع الثاني : كاهنة الحب وانكيدو

كان السومريون يعظمون المرأة، ويعدّونها من عناصر المجتمع الفاعلة، فهي ذات قدرة على القيام بالأعمال التي لا يستطيع الرجل القيام بها، ونحن هنا امام طرفين من الصراع انكيدو الذي يمثل الطرف الاول في هذا الصراع، فهو كما يبدو قوي ضعيف! قوي حين نتحدث عن قوته الجبارة فهو إنسان خارق للقدرة الجسدية، مقاتل جبار وضعيف حين تبدو سلطة مملكة الحب القوية فتذيب قوته، وتختفي تبعاً لذلك خلفها، اما الطرف الثاني فهي شمخاتو، المرأة التي أرسلها جلجامش الى انكيدو لتقوده الى أوروك (فراس سواح، ١٩٨٧، ص[٥٥])، وهي المرأة التي نجحت في مهمتها واستطاعت أن تسيطر على الوحش وتقوده، كما تقود الام طفلها ثم تعلمه السلوك الإنساني، فلما رأت البغي انكيدو: (طه باقر، ١٩٨٠، ص[٤٣])

اسفرت البغي عن صدرها وكشفت عن عورتها
فتمتع بمفاتن جسمها
نضت ثيابها فوقع عليها
وعلمت الوحش الغر فن المرأة، فانجذب اليها وتعلق بها

استعملت الكاهنة شمخاتو مفاتنها لإثارة العاطفة عند انكيدو، ونجحت في ترويض الوحش الرهيب، بالحب كأسمى علاج لقساوة القلب، وجفاف الروح ليستقر سكناً، فهي المؤنس وهي القرين الذي يبدد الوحشة والوحدة في حياته، لنقرأ الابيات الشعرية الآتية، لنرى كيف صيرّته بشراً سوّيا يُحسن فن المغازلة، استطاعت أن تقوده الى اوروك :(طه باقر، ١٩٨٠، ص[٤٦])

انهض يا انكيدو لآخذ بيدك الى " أي- آنا "، مسكن آنو
الى حيث جلجامش، الكامل القوي والفعال
وأنت تحبه كما تحب نفسك
فهيا انهض من على الارض، فراش الراعي
لقد سمع كلمتها وتقبل قولها
وقع نصح البغي في قلبه موقع الرضا

وأن الشاعر الأندلسي حين يصف سلطة المرأة ودورها في الحب، يحمل في ذهنه تصورات كثيرة ورثها عن الإنسان القديم، فضلاً عن ذلك كل ما انتزعه الشاعر من محيطه وعالمه الذي يعيش فيه، فهذا يوسف الثالث، يستجلي طبيعة العلاقة العاطفية والوجدانية بين الرجل والمرأة، تلك العلاقة المثيرة بكل وقائعها وتفاصيلها، التي تظهر قدرة المرأة العاطفية على التحكم بالرجل وتغييره، إذ يقول : (عبدالله كنون، ١٩٦٥، ص[١٠١-١٠٢])

تحكمت في السر والخاطر	ومازالت كالنور في الناظر
ففيم تطيل الجفا ظالماً	ولست على الجور بالقادر
هززت قوامك لي ذابلاً	ومازلت كالغصن الناضر
حرمت الجفون لذيذ المنام	فلم يك طيفك بالزائر
لك الامر والنهي فيما تشا	ء فرحماك مولاي من آمر

يمثل البيت الاخير أروع معالي الامتثال والخضوع في الحب، إذ أوكل الشاعر أمر نفسه لحبيبته تفعل به ما تشاء، لها الأمر والنهي، إنها سيده ومولاه، وهو عبدها وخادمها.

وتعظم سيطرتها ويظل العاشق أكثر الناس امتثالاً للأوامر مهما تطاول عزه، وعظم شأنه، سواء كانت الاوامر تعطى من قريب أم بعيد، فهي في كلتا الحالتين نافذة الحكم، إذ يقول: (عبدالله كنون، ١٩٦٥، ص٦٠)

وحكمك فينا نافذ كلما بدت أوامره ما بين غيب ومشهد

فنحن امام سلطتين: سلطة الحب والهوى، وسلطة السياسة والملك، وعلى الرغم مما تمتاز به السلطة السياسية عند يوسف الملك من قوة وشمولية في الحكم والسيطرة، إذ تطيعه البرايا فرادى وجماعات، فأنها تبقى دون سلطة " الحب الممارسة"

الصراع الثالث: جلجامش وسيدوري " فتاة الحانة "

إن شعب وادي الرافدين كان سباقاً في التطّرق لحاجات الإنسان الأساسية والرغبة الجامحة ومعالجة وإيجاد السبل اللازمة لتهدئتها، ولهذا جاء حديث صاحبة الحانة ليؤكد على اهمية العلاقة الزوجية، ربما أراد كاتب الملحمة القول بأن الرجل بعد الزواج يكون أكثر تحضراً ومدنية منه قبل الزواج، وقد تم التطرق الى ثمرة هذا الزواج – هو الطفل الصغير – وهذا الناتج من الفعل الانساني يجلب الفرح والسعادة لوالديه وللآخرين، أذاً الزواج له اهمية في استمرار الحياة، كما انه يسبب الفرح واللذة التي تدفع الانسان ليعشق الحياة ويرغب فيها اكثر، ولهذا تقول سيدروي :(طه باقر، ١٩٨٠،ص٧٩)

إما أنت يا جلجامش فاجعل كرشك مملوءاً
وكن فرحاً مبتهجا ليل نهار
واقم الأفراح في كل يوم من ايامك

ودلك الطفل الذي يمسك بيدك
وافرح الزوجة التي بين احضانك
وهذا هو نصيب البشر

إن سيدروي المرأة اللطيفة الناعمة التي يتدفق منها الحب والحنان، وسيلة أخرى لتثني جلجامش عن الطريق الذي سلك، وكانت كلماتها منسجمة مع حالتها كأنثى، من هنا كان لها الوقع الاكبر في نفس الرجل جلجامش، ولكن دوافع جلجامش أكبر من أن تقف في وجهها كافة اللذات والشهوات، فيرد عليها بقوله: (طه باقر،١٩٨٠، ص٧٩)

ياصاحبة الحانة اين الطريق إلى " اوتو – نبشتم"
دليني كيف أتجه إليه ؟
فاذا أمكنني الوصول إليه فأنني حتى البحار سأعبرها
وإذا تعذر الوصول اليه فساهيم على وجهي في البراري

امام إصرار جلجامش تستسلم سيدوري وتتركه ليكمل ما بدأه، وتخبره عن مكان الملاح.

إن الشاعر الأندلسي يؤكد على أهمية الزواج، شأنه في ذلك شأن الشاعر العراقي القديم، فهذه الشاعرة بثينة بنت المعتمد، تعرضت للسبي في اثناء النكبة التي حلت بأبيها، فقد بُيعت لأحد تجار اشبيلية،؟ فأهداها جارية لابنه، ولما اراد هذا الابن الدخول عليها بوصفها جارية، امتنعت امتناع الحرائر، وأظهرت له نسبها، وقالت: لا أحل لك الا بعقد الزواج، وإن رضي ابي بذلك، وأشارت عليه وعلى ابيه بتوجيه كتاب منها الى ابيها وانتظار جوابه، فوافقها، ولقد ضمنت خطابها قصتها كاملة، إذ تقول: (وافدة يوسف كريم، ٢٠٠٣، ص٤٥)

اسمع كلامي واستمع لمقالتي فهي السُلوك بدت من الأجيادِ

لا تنكروا أني سُبيتُ وأنني بنت لملكٍ من بني عبّادِ
ملك عظيم قد تولى عصرُه وكذا الزمانُ يؤول للإفسادِ
فخرجت هاربة فحازني امروٌ لم ياتِ في إعجاله بسدادِ
وأرادني لزواج نجل طاهر حسن الخلائق من بني الانجادِ
ومضى إليك يسوم رأيك في الرضا ولأنت تنظر في طريق رشادي
فعساك يا أبتي تُعرفني به إن كان ممن وترتجى لودادِ
وعسى رميكية الملوك بفضلها تدعو لنا باليمُن والإسعاد

وها نحن مرة أخرى امام سلطتين: سلطة الاميرة التي ارتضت حكم القدر في مصيرها - بعد سقوط عرش والدها – بزواج الحرائر، وليس كجارية، وسلطة تاجر اشبيلية وابنه التي تبقى دون سلطتها، فقد تغلبت عليهما، ابنة الملك في هذا الصراع.

٦. الصراع مع الذات :

إن مأساة جلجامش وعقدته الابدية، كانت في صراع ذاته الحيوانية مع ذاته الروحية، فتنازعه عقدة النقص وعدم الاكتمال الالهي ليستسلم لإنسانيته في آخر المطاف، إذ أن الجسد وما يحمله من معان وانفعالات كان له أثر في الانقلاب الداخلي لجلجامش نحو سلوكه الاخير، وتأتي عقدة النقص او الشعور بالدونية التي يعاني منها جلجامش، احد اسباب القوة، وليس المقصود بالقوة هي القوة الجسمانية ومظاهر السلاح وامتلاكه فقط، وانما القوة الروحية والمعنوية من اجل تحقيق غايته بالتعايش مع فكرة الموت، لخلق موازنة بين كينونته السفلى مع الكينونة العليا في إطار يتسم بالموضوعية الجادة، فجلجامش الملك كان إنساناً يحب شعبه، لأنه عندما حصل على عشبة الخلود، قال: (طه باقر، ١٩٨٠، ص[١٠٣])

يا " اور- شنابي" ان هذا النبات نبات عجيب
يستطيع المرء أن يطيل به حياته
لأخذته معي الى " الناس " يقطعوه ويأكلوه

إن صراع الذات لجلجامش موصول بصراع يوسف الثالث مع ذاته، حينما ائتمروا عليه اهله، وابعدوه عن الملك ومقره، بعد اليمين التي أداها جهاراً بالوفاء، وعزلوه في مكان بعيد، إذ يقول: (عبد الله كنون، ١٩٨٧،ص[١٦٠])

أبعدونا تغالباً أبعدونا طردونا من ملكهم طردونا
تركونا لما ركنا إليهم صحوة الركن جهرة تركونا
سلبونا يميض الذي قد منحنا من عطايا جزيله سلبونا
خلفونا بعد اليمين جهاراً ويحهم ما لهم لما خلفونا
حيث عدنا والعود أحمد لكن إن أساء وافانا محسنونا

قدرة الشاعر يوسف الثالث على التفوق على ذاته الحيوانية وانتصار ذاته الروحية، وذلك بالتخلي عن الانتقام، فان ذلك يعزز لدى الشاعر دافع الانتماء العائلي، الذي تفرضه الحاجة الماسة لإثبات الذات الإنسانية، إذ يقول : (عبد الله كنون، ١٩٨٧،ص[١٢٨])

وإننا في الملك أخلاقنا محسبة أجوبة السائل
إن يكن العزم بإرهابنا للعاجل المقضي والآجل
أو يكن الحلم فأحسن بما يهديه وصف محسن الباذل

الخاتمة :

تهدف هذه الدراسة الى تحقيق مقتربات بين ملحمة جلجامش والشعر الأندلسي، توثق صلة الشعر الأندلسي بأدب العراق القديم، وتأثره بكثير من موضوعاته، ولا سيما الصراع الانساني، إذ وجد الباحث كثيراً من الصلات بين الادبين، ومنها:

١. إن الملحمة تدور احداثها حول شخصية تاريخية حقيقية، ظلت محملة بعبق تراثي إنساني يجر أذياله عبر السنين، فجلجامش هو نفسه الإنسان الأندلسي، وهو كائن باحث عن الحقيقة ليعتنقها ويحيى بموجبها ليكون هو كذلك حقيقة، عندها فقط، يصبح بإمكانه أن يتغلب على الموت؛ لأنه حقيقة والحقيقة لا تموت.

٢. إن النقطة الأخرى التي تفرض نفسها هي أن الديمقراطية بدأت في بلاد سومر هذا يثبت أن تاريخنا الديمقراطي مشرف، ومن خلال العلاقات الحضارية والثقافية المزدوجة، بين السومريين والأندلسيين، فأن الشعر الاندلسي هو رؤية كونّية لا تنصهر في تصّور نهائي لحالة معينة، بل نموذج للتعبير عن حالة العصر عبر ربط الحاضر القومي بالماضي البعيد.

٣. إن الحياة لا تستقيم ألا بالصراع، اولها الصراع الانساني ضد الاخطار وقوى الشر، وان جوهر هذا الصراع وقانونه الخالد هو السيف الصارم، وهو صراع أزلي . اما الصراع الآخر فهو الصراع مع فكرة الموت والفناء المقدرين على البشر، بالوجود والبقاء، ازاء حتمية الموت، يحاول الانسان الرافديني والأندلسي، التخفيف من وطأة الموت والمصير المحتوم، وذلك بالبحث عن هاجس الخلود المادي بعد أن أيقن باستحالة الخلود المعنوي.

حاولت في بحثي هذا الوقوف على نوع آخر، الا وهو صراع الرجل مع المرأة، بوصفها عنصراً فاعلاً، لتشكل بؤرة الصراع النفسي في حياة الانسان الرافديني والاندلسي، فقد كانت حافزاً مهما تستثار من خلاله عواطفه وإهاجة مشاعره واحاسيسه، كما وقف البحث عند صراع الذات الإنسانية مع ذاته الروحية، فيعالج أزماته الإنسانية النفسية ويداوي الآمه ويضئ آماله بأدب حقيقي.

Abstract

Approaches in the human conflict between the Epic of Gilgamesh and Andalusian poetry

"Art Critical Study"

By Laila Manati Mahmoud

This research aims to identify artistic approaches that document the connection of Andalusian poetry with the Epic of Mesopotamia, and its influence on many of its themes, especially the image of human conflict. The Sumerian and Akkadian "Babylonian and Assyrian" (see: Taha Baqir, 1980, p. 9-10), on clay tablets in cuneiform script, with poetic texts by Andalusian poets, and I have found wonderful methodological approaches that raise the search to the level of finding important aspects that are deeply linked to the psychology of The epic poet and the poets of Andalusia, and their personal emotions and the moral frameworks in which they fortified themselves without prejudice to their active personality, which was clearly manifested in their poetry, and was able to reveal what was going on inside them, and provided us with everything we wanted to know and see, and revealed the nature of the mentality of these poets, and what arrived To him their thinking of awareness and authentic culture crystallized by the events in a manner consistent with their goals. The research also stopped at the nature of the human conflict in its various forms, whether it is an (external) conflict, and this conflict arises with others and society and its values, or an (internal) conflict, and it is with the self, its obsessions and impulses, and I tried in my research to stand at the poetic texts of these poets, because they constitute the means The appropriate key in reaching the manifestations of this conflict in its comprehensive concept, such as a difference of opinion, or viewpoints, or a judgment on something; Because the text is a summary of the poet's experience, and an important document of the facts of his life and the accompanying events and details, revealing many of the features of that era in which he lived.

المصادر :

- ابي عبد الله محمد بن علي بن عسكر." *شعراء اندلسيون منسيون، ويليه فوات الدواوين الاندلسية*"، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠١٣ .
- زكريا ابراهيم ."*المشكلة الخلقية* "، القاهرة، دار مصر للطباعة، ١٩٧١.
- سامي سعيد الاحمد." *جلجامش* "، بغداد، دار الشؤون الثقافية، ١٩٩٠.
- سامي سويدان." *في النص الشعري العربي- مقاربات منهجية* "، بيروت، دار الآداب، ١٩٩٩.
- صموئيل نوح كريمر." *السومريون* "، بيروت، مكتبة الحضارة.
- طه باقر." *ملحمة جلجامش، اوديسة العراق الخالدة* "، بغداد، دار الحرية للطباعة، ١٩٨٠ .
- طه باقر." موجز *تاريخ العلوم والمعارف في الحضارات القديمة والحضارات الاسلامية* "، مطبعة جامعة بغداد، .١٩٨٠ .
- عبد الله كنون." *ديوان ملك غرناطة، يوسف الثالث* "، بيروت، دار الجيل للطباعة، ١٩٦٥ .
- عبد الرزاق خليفة محمود." *هاجس الخلود في الشعر العربي حتى نهاية العصر الاموي*"، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، ٢٠٠١ .

- فراس السواح. *" كنوز الاعماق، قراءة في ملحمة جلجامش"*، دمشق، العربي للطباعة، نيقوسيا، ١٩٨٧ .
- محمد بن شريفة. *" ديوان ابن فركون"*، المغرب، سلسلة التراث، ١٩٨٧ .
- محمد حسن قجة. *" محطات اندلسية في التاريخ والادب والفن الاندلسي"*، جدة، دار السعودية، ١٩٨٥.
- محمود عبدالله الجادر. *" دراسات نقدية في الادب العربي"*، بغداد، دار الحكمة للطباعة، ١٩٩٠ .

رسائل الماجستير

- خميس بو لعراس. *" الحياة الاجتماعية والثقافية للأندلس في عصر ملوك الطوائف"*، جامعة باتنة، ٢٠٠٧ .
- فوزية عبد الله العقيلي . *" الرؤية الذاتية في شعر المرأة الاندلسية"*، جامعة ام القرى، ٢٠٠٠.
- وافدة يوسف كريم . *" عهد الموحدين"*، العراق، جامعة تكريت، ٢٠٠٣ .